الفصل الخامس

الدين والتعليم

خضوع الحياة الاجتماعية للدين :

كان الصراع بين المسيحية والوثنية حاداً عنيفاً منذ القرن الأول للميلاد ، ولقى المسيحيون كثيراً من ألوان التعذيب والمحن إلى أن اعتنق الإمبراطور قسطنطين الديانة المسيحية وأصبحت الدين الرسمى للدولة . ومنذ القرن الرابع الميلادى وصروح الوثنية تنهار وتضيق دائرتها وينتشر الإيمان بالله خالق كل شىء فى أوربا وفى غرب آسيا وفى شمال إفريقية ، وهى جملة العالم المعروف فى ذلك الزمان ، وبقيت جزيرة العرب يعبد أهلها الأوثان ويسجدون للأصنام ، وظلت ربوع فارس تستضىء بهياكل النار .

وشهد العالم فى مستهل القرن السابع ظاهرة جديدة شيعت وثنية العرب ومجوسية الفرس إلى الفناء الأخير ، تلك الظاهرة هى الديانة الإسلامية بما حملت معها من هدم للآلهة المصنوعة وتوحيد لله الواحد القهار . ولكن الإسلام ببساطته وروحه العملى واتجاهه الواقعى كان سريع الانتشار ، فلم يمض زمن طويل حتى كانت أجزاء العالم المعروف تخضع للأديان الثلاثة : الإسلام والمسيحية واليهودية .

ولم يكن من السهل أن ينتقل الناس من عهد إلى عهد دون حاجة إلى مايشبههم فى العهد الجديد ، ويهدم العهد القديم . والانتقال من القديم إلى الجديد هو الثورة بعينها ، تحمل بين طياتها معاول الهدم وبذور البناء . وفى النفس حنين فطرى إلى الماضى الذى يمثل بنيان الحياة الأولى ، وسلطان التقاليد هو سلطان الزمان . لهذا قضى الناس زمناً طويلاً يلتفتون إلى الماضى ، ويعودون إلى الذكريات الغابرة فيتمثلون الآلهة فى أوثانها ، فينهض المؤمنون لإخفات أصوات الملحدين وآراء

الزنادقة الكافرين . واستعمل أهل الإيمان فى حربهم سلاحين : لسان الحق يزهق الباطل ويشيد بآيات اليقين ، ويقيم الحجة على المخالفين وأهل العناد ، والسلاح الثانى سيف القوة يكمم الأفواه ويعذب الكافرين .

بذلك كان الدين فى الغرب والشرق هو الشغل الشاغل للأذهان ، واستمرت المسيحية والإسلام فى حربهما للكفر والإشادة بالإيمان طوال القرون الوسطى .

وأخذ المسلمون كما أخذ المسيحيون يلقنون أبناء الأجيال أسرار الدين وحكمة العقيدة ، ويطبعون الناشئة على الدين الجديد عن طريق التعليم .

تلك هى البيئة الاجتماعية التى استنارت بضوء الدين ، ونور الإيمان واليقين ؛ فخضع الناس فى كل عمل من أعمالهم الظاهرة ، وفى كل نزعة وكل اختلاجة باطنة لتعاليم الدين .

ما الدين الإسلامى وماعقيدته وأسراره ، ودعوته وأعماله ، وما الديانة المسيحية علماً وعملاً ؟ هذا هو الذى شغل أذهان المفكرين فى ذلك العصر .

واختلف رجال الدين وأصحاب الرأى وقادة الفكر فى النظر إلى الدين وشرح أصوله وبيان مختلف مناحيه لذلك نرى أن كل مفكر بدأ يعرض العقيدة الإسلامية على النحو الذى يعتقد أنه الحق والصواب . فلا يخلو كتاب فى الفقه أو الحديث أو التاريخ أو الأدب أو الفلسفة من مقدمة تفصح عن عقيدة صاحب الكتاب ، وقد تطول هذه الخطبة وقد تقصر ، ولكنها على أى الحالات تبدأ بالبسملة والحمد . فتذكر اسم الله الرحمن الرحيم ، شهادةً بالتوحيد واعترافاً بالإيمان والتسليم .

وهكذا بدأ القابسى بذكر اسم الله ، ثم أخذ فى شرح الإيمان والإسلام . والكلام فى الإيمان والإسلام هو بيان لما يفهمه القابسى عن الديانة الإسلامية ، وشرح للعقيدة الإسلامية على طريقة أهل السنة . وفى ضوء هذه الحدود ينبغى لصبيان أن يفهموا الدين ، وينبغى للمسلمين أن يقوموا بالتعليم .

ولم يكن تفصيل القول فى الإيمان والإسلام أثراً من التقليد الأعمى الذى يقوم به بعض الكتاب مقتفين أثر السابقين وعادة الأوائل ، كما كان يفعل الشعراء فى

الإسلام من ابتداء قصائدهم بالبكاء على الأطلال والدمن كصنيع الشعراء فى الجاهلية ، ولكن القابسى اضطر إلى إعلان الرأى عن الإيمان والإسلام لما بين الدين والتعليم من صلة وثيقة ، بل صلة ضرورية ، هى علاقة الأصل بالفرع والغاية بالوسيلة .

وهى صلة لم يصنعها القابسى ، ولم يفرضها على التعليم فرضاً ، ولكنه استمدها من الحياة نفسها ، حيث كان الدين سائداً فى عصره ، كما أسلفنا القول ، فى كل لون من ألوان الحياة الاجتماعية .

العقيدة الإسلامية عند أهل السنة :

غير أن ماهية الدين كانت موضع خلاف بين المسلمين . وقد استطارت الفتن بين أهل المذاهب المختلفة إلى درجة أنهم كانوا يكفّر بعضهم بعضاً .

وعقيدة الديانة الإسلامية كما يفهمها القابسى ، وكما يريدها وكما ينبغى أن تذيع فى الناس عن طريق التعليم تتلخص فى خمس :

الإيمان ، والإسلام ، والإحسان ، والاستقامة ، والصّلاح .

فالدين عنده نظر ينتهى إلى عمل . وليس الدين هو الإيمان فقط أو الإسلام فقط ، أو الإحسان والاستقامة والصّلاح فحسب ، وإنما هو كل ذلك مجتمعاً . فالشخص الذى ينتحل الإسلام ينبغى أن يكون مؤمناً ومسلماً ومستقيما ومحسناً وصالحاً .

هذا الطريق فى فهم الدين يختلف عن رأى كثير من أصحاب الفرق الإسلامية الذين نظروا إلى المسلم من جانب واحد لا من هذه الجوانب مؤتلفة . وعندنا أن القابسى لم يضع العقيد الدينية أو مبادئ الدين فى ناحية وأداء المسلم لها فى ناحية أخرى ، ولكنه مزج بينها ونظر إلى الدين فى سلوك المسلم ، أو نظر إلى سلوك المسلم فى دينه ، وهذا الاتجاه فى التفكير هو الذى يجعله يدمج الإيمان فى الإسلام ولا يفصل بينهما .

هذه النظرة تركيبية لا تحليلية .

فهى تركيبية لأنه يجعل سلوك المرء وحدة لاتتجزأ ، بل أكثر من هذا يوحّد بين

سلوكه الخارجى الظاهر ، وبين إيمانه الباطن وعقيدته الداخلية ، بين التصديق بالقلب وعمل الجوارح ، بين الإيمان والإسلام .

أما غيره من المتكلمين والفقهاء فقد حللوا المعانى المنطوية تحتها أعمال المسلم فى ظاهره وباطنه ، وقسموا الأعمال المختلفة إلى كبائر وصغائر فيما يختص بالمحرمات ، وتجاوزوا عن الصغيرة وكفروا مرتكب الكبيرة ، واختلفوا فيما بينهم على هذا التقسيم اختلافاً كبيراً .

وعندنا أنهم بهذا التحليل قد جزءوا شخصية المسلم ، وتكلموا لا عن شخص يعمل ، بل عن معان منفصلة لم يرتفعوا بها إلى الوحدة التركيبية الواجبة بعد التحليل الجدلى .

وكثير من فقهاء أهل السنة يميزون بين الإيمان والإسلام ؛ وعندهم أن الإيمان هو التصديق الحاصل فى القلب ، وأما الإسلام فهو إظهار الإيمان والإعلان به . فكل مؤمن مسلم ؛ لأن من اعتقد الإيمان فى الباطن فهو معلن به فى الظاهر ، وليس كل مسلم مؤمناً ؛ لأن المنافق والزنديق يظهران الإسلام ويعتقدان الكفر ، فالإسلام أعم من الإيمان[1] .

ويهمنا أولاً أن نقرر رأى أهل السنة فى هذه المسألة لما لها من أثر فى الموضوع الذى نعالجه وهو موضوع التعليم ، والغالبية عندهم أن الإيمان والإسلام والدين عبارات عن معنى واحد ، كما هو عند البخارى[2] ، ثم أضاف الكرمانى فى شرحه لحديث الإيمان والإسلام أن قد « اضطربت أقوال العلماء فيه قديماً وحديثاً » وقال محيى السنة : جعل النبى ﷺ الإسلام اسماً لما ظهر من الأعمال ، والإيمان اسماً لما بطن من الاعتقاد ، وليس ذلك لأن الأعمال ليست من الإيمان والتصديق بالقلب ليس من الإسلام ، بل ذلك : « تفصيل لجملة هى كلها شىء واحد وجماعها الدين » .

فالقابسى على هذا الرأى يجعل من الدين وحدة ، ومن الإيمان والإسلام جملة

---

(١) مقدمات ابن رشد ص ١٨ .

(٢) الكرمانى شرح البخارى : كتاب الإيمان .

لشيء واحد .

والإيمان والإسلام جاء بيانهما فى حديث الرسول المشهور ، فالإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والإسلام هو العبادة التى تجتمع فى إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت .

على أى شكل تكون هذه العبادات ؟

إنها مفروضة على أى الحالات ، ولامحل للبحث فى تاركها . وإنما السؤال أيؤديها المسلم كيفما اتفق ، أم يقبل عليها وينفق فيها حياته ؟

يطالب القابسى أولاً بإحسان عبادة الله فى كل ما يتعبد الإنسان ، وذلك يكون بالإخلاص فى هذه الأعمال ، على أن يذكر الإنسان الله حين العبادة كأنه يراه ، فإنه لم تكن تراه أيها العبد فإنه يراك . وهذا هو المقصود الصحيح من ذكر الله لا كما يفعل المسلمون فى العصر الحاضر فى حلقات الأذكار يرددون فيها اسم الله ترديداً آليًّا ، وينسون بعد ذلك المعنى السامى من ذكر الله وهو الرقابة على الأعمال . فالغرض من الإحسان هو نوع العبادة التى يؤديها المرء خالصة لله تعالى .

أما الاستقامة فهى مداومة المقام فى الدين ، لاينكب عنه يميناً ولا شمالاً ، ولايلتزم منه مالا يطيقه ، فالدين يسر . والقابسى يجرى مع روح الإسلام الواقعى الذى ينشد التوسط ، ويلتزم الحدود البشرية ، وللإنسان بعد ذلك أن يزيد فى العبادة بما يطيق . وهذه هى صفة الصالحين ، وقد رتبهم القابسى درجات أدناها أن يسلم العبد من الخطايا وأوسطها الاقتصار على أداء الفرائض واجتناب المحارم مع حسن العبادة ، وأرفعها أداء النوافل بعد استكمال الفرائض وهؤلاء هم الأولياء « فما سلم العبد من الخطايا فهو من الصالحين ، ومازاد بعد ذلك من طاعة ربه زاد خيراً » ١٤ - ١

فنحن نرى أن القابسى يشرح الدين بما يلائم المجتمع بأسره ، ويتفق مع الطبيعة الإنسانية دون مغالاة أو إسراف .

غلو المتكلمين والمتصوفة :

وطائفة المسرفين فى الدين هم أهل التصوف ، وهم متفاوتون فى مقالاتهم عن العبادة ، فالشهرستانى ينشد التصوف مع الاعتدال ، مع أنه على مذهب الأشاعرة . قال : إن الإسلام هو المبدأ ، ثم إذا كان الإخلاص معه بأن يصدق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ويقر عقداً بأن القدر خيره وشره من الله تعالى ، بمعنى أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، كان مؤمناً حقًّا . ثم إذا جمع بين الإسلام والتصديق ، وقرن المجاهدة بالمشاهدة ، وصار غيبه شهادة فهو الكمال . فكان الإسلام مبدأ ، والإيمان وسطاً ، والإحسان كمالاً[٣] .

فمذهب الأشاعرة يوفق بين رأى المعتزلة العقلى وبين رأى أهل السنة النقلى . ذلك أن المعتزلة فى مسائل الاعتقاد لم يقبلوا ماجاء فى الكتب والسنة قبولاً أعمى بل أثبتوا الوحدانية والصفات لله بالعقل ، ثم تكلموا فى القضاء والقدر كلاماً أثبتوا فيه الحرية للإنسان ، وأن أفعال العباد مخلوقة لهم ، وهذا مادعا الأشاعرة أن يخففوا من هذا التطرف العقلى ، ويقفوا من إرادة الله موقفاً وسطاً ، وأن مايصيب الإنسان فمن الله .

ونحن نرى ألفاظاً جديدة دخلت إلى الإسلام هى المجاهدة والمشاهدة والغيب والشهادة ، ، وهذه كلها مصطلحات المتصوفة التى استحدثوها ، مما لم يكن للمسلمين الأوائل عهد بها . وقد انتهى أمرالمتصوفة فيما بعد إلى فهم الإسلام على نحو معقد ، بلغ من درجة تعقيده أنهم أوجبوا معرفة الطريق على قطب من أقطابهم ، وذلك لصعوبة الوصول من غير مرشد يأخذ بيد المسلمين ، ويرتفع بهم فى درجات المقامات ، ومختلف الأحوال .

تقدم المعتزلة والأشاعرة وأهل السنة والمتصوفة إلى الشعب يعرضون بضاعتهم العقلية ، فوجد العامة أن مايلائمهم منها هو بضاعة أهل السنة لسهولة فهمها ، وبساطة عرضها ، وخلوها من التعقيد والالتواء ، وملاءمتها للطبائع البشرية

(٣) الشهرستانى ص ٤٦ .

جميعاً ، ففيها العمق لمن يريد التعمق ، والوسط لمن يرغب فى التوسط ، والحث على مداومة العبادة لمن يريد الارتفاع إلى درجات الصالحين . ولاننسى إلى جانب ذلك أن شخصية الرسول حجة فى تدعيم الرأى ، وأن الاعتقاد فى الآراء يستند إلى شخصية قائلها إلى حد كبير إلى جانب ما فى هذه الآراء من قيمة ذاتية ، فاستناد أهل السنة إلى الآيات القرآنية وإلى أحاديث الرسول ، قربهم من أفهام العامة وعقولهم وقلوبهم .

والعمل فى الحياة أسبق من الجدل ، وأدعى إلى الفطرة السليمة ، وأبعث إلى الشعور بلذة طبيعية غير مصنوعة .

والناس فى حاجة إلى العمل فى الدنيا لكسب المعاش ، وإلى التفكير فى الآخرة التى تقرر أحوال المعاد ، فهم يعملون لدنياهم ودينهم . على أن الاستغراق فى شئون الدنيا مما يصرف عن الدين ويفقد المرء معه نعيم الآخرة . والانصراف التام إلى أمور الدين يبعد الإنسان عن الدنيا فيعجز عن الكسب : بل يعجز عن الحياة . والطريقة المثلى هى الجمع بين الدين والدنيا بما يحقق المصلحة فى الجانبين . وسيرة الرسول نفسه خير شاهد على ذلك : فإنه إلى جانب التعمق فى العبادة كان يرعى الأغنام ويشتغل بالتجارة ، وكذلك كان الصحابة . وفى القرآن إشارة إلى هذا الجمع بين شئون الدين والدنيا فى أكثر من موضع : «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولاتنس نصيبك من الدنيا» .

وجدل المتكلمين يبلبل الأفكار ، ولاينتهى الجمهور منه إلى الاطمئنان الدينى ، وبعد فهو جدل لانهاية له . وطريقة أهل التصوف تدفع إلى استغراق فى العبادات يصرف عن الكسب . وأحوج الناس إلى تحصيل القوت هم العامة ، فلا ضياع لهم ولا مال موروث فإذا مال العامة مع المتكلمين أضاعوا دينهم ، وإذا تصوفوا ضيعوا دنياهم . أما مذهب أهل السنة فإنه يشبّهم فى العقيدة ، ويقدم لهم الدين فى صورة بسيطة ، ويضمن لهم سلامة الدين . وهو إلى جانب ذلك لايصرفهم عن العمل بل يحثهم عليه ويرتب لهم قواعد السلوك ووجوه الكسب الحرام والحلال .

ولم نذكر فى هذا الصدد طائفة أخرى من المفكرين هم الفلاسفة ، فهؤلاء كانوا بعيدين كل البعد عن عقل الجماهير ، وقد انطووا على أنفسهم ، وقصروا دراسة الفلسفة على فئة خاصة ، ولم يحاولوا إذاعتها فى الناس كافة لمعرفتهم بصعوبة الآراء الفلسفية على الأفهام ، ونستثنى من الفلاسفة إخوان الصفا الذين تقربوا إلى الجمهور برسائلهم المعروفة .

فسمو مذاهب المعتزلة العقلية ، ومغالاة المتصوفين فى مسالكهم الروحية ، وصعوبة الآراء الفلسفية ، كل أولئك قرب بين أهل الحديث وبين العامة ، وهى استجابة طبيعية لتأثير مذهب أهل الحديث الملائم لنفوسهم . ولهذا كان تعليم الشعب فى أيدى من يفهمون الشعب ويفهمون عقليته ونفسيته .

وقد عنى الفقهاء من أهل السنة بالتعليم ليشب العامة على معرفة الدين علماً وعملاً . لأن معرفة الدين لاتتم إلا بنوع من التعليم ، سواء أكان هذا التعليم صادراً من الوالد إلى أبنائه بالتلقين ، أو أخذاً عن شيخ بعينه يتطوع لتعليم الصبيان شئون دينهم . وفى كلتا الحالتين لايتحقق نشر الدين بين جميع الناس ، لانصراف الآباء إلى أعمالهم وقلة من يتطوعون بالتعليم ، لهذا أجاز الفقهاء قيام المعلمين للتعليم بالأجر .

والتعليم الذى نقصده هو تعليم الصبيان ، لأننا بصدد الكلام عن تعليم الصبيان فقط . ونوع التعليم هو الدين لأنه المقصود فى ذلك العصر .

ولم يكن من السهل على المتكلمين المتعمقين فى فهم العقيدة الإسلامية أن يقوموا بتعليم الصبيان . ولم يكن جدلهم مما تستسيغه هذه العقول الناشئة . وطريق المتصوفة وعر يصعب سلوكه على الرجال ، وهو مستحيل على الصبيان .

لهذا انتهى تعليم الدين الصبيان إلى أيدى أهل السنة .

ولم يحاول أهل السنة تغليب مذهبهم بالقوة أو العنف . أو أن يفرضوه فرضاً على الناس ، وإنما نجحوا حين أخفق غيرهم ، لقرب مذهبهم من البداهة وبساطة الفطرة .

والتعليم على مذهبهم مخالف بطبيعة الحال لألوان التعليم التى صورها أصحاب

المذاهب الأخرى ، والتى نعرض لها فى فصل آخر ، لنبين أن التعليم ظل للمذهب العقلى أو النقلى الذى يعتقده صاحبه .

ويرجع السر فى وقوع تعليم الصبيان فى أيدى أهل السنة إلى أسباب كثيرة ، منها أن كثيراً من المفكرين فى الإسلام ترفعوا عن تعليم الصبيان ، وتركوا هذا الأمر لغيرهم ، وقد صرح بذلك أصحاب رسائل إخوان الصفا الذين بينوا طريقة التعليم مبتدئين بالشباب فى سن الخامسة عشرة .

وأهم هذه الأسباب هو عمق المذاهب الإسلامية الأخرى التى تدق على أفهام الصبيان .

وإذا كان جميع هؤلاء بحثوا فى الدين . ونشدوا وجه الحق فيه ، فإن أهل السنة جمعوا بين الدين وبين الحقيقة على وجه وافقهم على الجمهور ، لأنه يقع فى طوق المقدور . ويتفق مع هذا الرأى الغزالى الذى قال عن المعتزلة : «من أشد الناس غلواً وإسرافاً طائفة المتكلمين كفّروا المسلمين وزعموا أن من لايعرف الكلام معرفتنا . ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتنا التى حررناها فهو كافر . فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده أولاً وجعلوا الجنة وقفاً على شرذمة يسيرة من المتكلمين» (٤) .

والغزالى يضع مقام العوام فى مرتبة أدنى من مرتبة النظار ، وأن الحق فى هذا المقام هو : «الاتباع والكف عن تغيير الظواهر رأساً .. وحسم باب السؤال رأساً . والزجر عن الخوض فى الكلام والبحث» (٥) .

ورأى الغزالى جزء من مذهبه فى التصوف ، لأن حد الكفر والإيمان عنده لايتجلى للقلوب المدنسة بطلب الجاه والمال وحبهما ، بل إنما ينكشف ذلك لقلوب : «طهرت عن وسخ أوضار الدنيا أولاً . ثم صقلت بالرياضة الكاملة ثانياً ، ثم نورت بالذكر الصافى ثالثاً ، ثم غذيت بالفكر الصائب رابعاً . ثم زينت

---

(٤) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ص ٩٧ ، من مجموعة فى كتاب الجواهر الغوالى من رسائل الإمام الغزالى – مطبعة السعادة بمصر ١٩٣٤ .

(٥) الرسالة السابقة ص ٨٨ .

بملازمة حدود الشرع خامساً ، حتى فاض عليها النور من مشكاة النبوة » [٦] .

وإذا كان الغزالى قد عاب على المتكلمين إسرافهم فى مطالبة العوام بمعرفة أسرار الإيمان بأدلة عقلية يصعب على أذهان العامة . بلوغها لقصور أفهامهم ، فإننا نعيب على الغزالى وعلى المتصوفة أن يقصروا طريق الإيمان على الكشف والصفاء ، مما لايتيسر للدهماء .

وقد نشأ عن وقوع تعليم الصبيان فى أيدى أهل السنة نتائج كثيرة فى الحياة العقلية للمسلمين .

وأهم هذه النتائج أن صبيان العامة نشأوا ولايعرفون من الدين إلا مالقنهم إياه شيوخ أهل السنة . والآثار التى يحملها الإنسان معه من الصبا تكون عزيزة عليه . ويصعب محوها . وقيل فى الأمثال التعلم فى الصغر كالنقش على الحجر . حتى إذا شبّ ، وخرج من الكتّاب ، ونزل إلى معترك الحياة . واطلع صور المنازعات العقلية الدائرة حول الأبحاث الدينية ، اتجه دون شعور إلى الناحية التى عرفها فى صباه ، وتعصب للرأى الذى صحبه مع الحياة . وقد كان النزاع عنيفاً حاداً بين المتكلمين والفلاسفة وأهل السنة . المتكلمون والفلاسفة يغلبون العقل على النقل ، ويبحثون المسائل فى كثير من حرية الفكر ، وهم على استعداد لتجريح آراء السلف إذا أثبتوا بالعقل فسادها . على أن الانتصار فى حلبة هذه المعارك العقلية كان يحتاج إلى سند من الجماهير ، وتأييد من العامة ، لأنهم فى آخر الأمر هم أداة الحياة للرأى . وقد يكون المتكلمون على حق ، وقد يكون الفلاسفة كذلك ، ولكن الحق من غير قوة تسنده مصيره إلى الانهيار . وهذه هى طبيعة الحياة . وقد وقف العامة من المتكلمين والفلاسفة ، بل من كل صاحب رأى جديد حر موقفاً شديداً أخاف المفكرين ، وجعلهم ينطوون على أنفسهم خشية غضب العامة وثورة الجماهير ، والثورة تلتهم ولا تعرف رحمة ولا عقلاً . فإذا كنا فى القرن السادس الهجرى نجد تعصب الجماهير قد بلغ الأوج فأحرقت كتب ابن رشد وأصيب بمحنة عظيمة . وانتصر الغزالى لأن العامة كانت من ورائه تشد أزره وتعضد رأيه بالعنف والقوة . وأغرب من ذلك

---

(٦) فيصل التفرقة – ص ٧٧ .

مهاجمة أهل السنة للمنطق لأن الفقهاء لم يعترفوا بمنطق اليونان ، ومن أقوالهم : « أن هذا الشافعي وأحمد وسائر أئمة الإسلام وتصانيفهم وأئمة التفسير وتصانيفهم لمن نظر فيها ، هل راعوا فيها حدود المنطق وأوضاعه ، وهل صح لهم علمهم بدونه أم لا ، بل هم كانوا أجل قدراً وأعظم عقولاً من أن يشغلوا أفكارهم بهذيان المنطقيين »[٧] .

وبهذه الوسائل العنيفة من الهجوم والطعن ، أبطل فقهاء أهل السنة الاشتغال بما عدا المعروف عن الأئمة ، واستمع لهم العامة والجمهور ، لأنهم نشئوا على هذه التعاليم منذ الصغر فى الكتاتيب .

فإذا شئنا أن نبحث فى علة ركود الحركة العقلية عند المسلمين بعد القرن السادس بعد أن ظلت هذه الحركة قوية مزدهرة منذ القرن الثانى فى التأليف والترجمة فى شتى العلوم والمعارف ، بما كان يبشر بأن يحمل المسلمون لواء العلم والحضارة فى العالم أجمع ، فينبغى أن نتلمس أسبابها فى بذورها الأولى عند الصبيان الذين انطبعت نفوسهم على طريقة خاصة فى فهم الدين يصعب التحول عنها .

ومن النتائج التى ترتبت على اضطلاع أهل السنة بالتعليم العام جمود التعليم ووقوفه عند طريقة لايتطور عنها ، والسر فى ذلك أن غايتهم القصوى هى حفظ القرآن ، وغرضهم هو تلقين أصول الدين ، مع الابتعاد عن تعليم أى مسألة من مسائل الدنيا إلا ماقضت به الضرورة . ونقول إنه انتهى الحال فى الكتاتيب بصورة عملية إلى حفظ القرآن والكتابة والقراءة فقط . ولطول العهد بهذه الطريقة التى دارت مع الزمان ، واتبعها الناس قرناً بعد قرن ، آمنو أنها الطريقة الوحيدة التى ينبغى اتباعها . ولما كان القرآن ثابتاً لايتغير ، ولما كان الصبيان لايتعلمون فى الأغلب إلا القرآن ، فإنك قد تدخل الكتاتيب فى القرن الرابع ، فلا تجد فيها فارقاً عن الكتاتيب فى القرن الرابع عشر إلا فى بعض أمور شكلية .

---

(٧) مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية – الطبعة الثانية مكتبة الأزهر ص ١٧٢ .

الغرض من التعليم :

الغرض من تعليم الصبيان عند القابسى ، وعند فقهاء أهل السنة جميعاً هو معرفة الدين ، علماً وعملاً .

والقابسى ينظر إلى الحياة ، ولا يبتغى منها إلا وسيلة إلى الآخرة ، فهو يسرف فى نظرته الدينية ، ويجعل الإنسان يستغرق جميع أوقاته وجميع أعماله فى سبيل الدين وباسم الدين .

وليس هذا الموقف غريباً عن القابسى وهو التقى الصالح ، الورع الحافظ للقرآن والسنن وأصول الدين وأصول الفقه .

ولم يكن القابسى فى حقيقة الأمر إلا مرآة للعصر الذى عاش فيه ، يصف مايفعل الناس ويشبّههم فى هذا العمل الصالح . وكان العصر كله عصر دين تغلب على النزعات المادية ، وكان الناس قريبى العهد بالزمن الأول الذى عاش فيه الصحابة والتابعون ، فلم ينسوا ماكانوا عليه من سيرة روحية ترمى إلى ابتغاء مرضاة الله ، والعمل للدار الآخرة .

وتمييز الغرض فى الذهن ضرورى لتحديد وسائل العمل ، وكان الغرض من التعليم واضحاً فى ذهن القابسى ، وفى ذهن من تقدموه من قبل منذ عصر النبى ، كانوا يقصدون إلى تعليم المسلمين الدين ، مما لايتيسر إلا بمعرفة بعض المبادئ التى تكتسب بالتعليم .

ومن هذه المبادئ القراءة والكتابة ، على أنها غاية فى ذاتها يكمل الإنسان بها نفسه ، بل على أنها سهولة تحصيل عنصر هام من عناصر الدين وهو القرآن ، ولذلك افتدى النبى عشرة من أسرى بدر بتعليم أبناء المسلمين القراءة والكتابة . والقرآن هو كتاب المسلمين الذى يجمع فى آياته قواعد الدين ، وأسرار العقيدة . وإذا كان لأصحاب الديانات المختلفة كتب سماوية أو غير سماوية ، فإنها لم تبلغ مبلغ القرآن فى تأكيده أنه كلام الله وتنزيل العزيز الحكيم ، مما يجعله أكثر قداسة ، وأبعد عن الشكوك والريب . وأدعى إلى القبول . ومعرفة القرآن ضرورية لمعرفة الدين ،

حيث لاتتم الصلاة إلا بقراءة شيء من القرآن فيها . والصلاة مفروضة على المسلمين لأنها ركن من أركان الدين . ولذلك يقول القابسى كما يقول الفقهاء : «وقد أمر المسلمون أن يعلموا أولادهم الصلاة والوضوء لها» ويقول أيضاً : «إن حكم الولد فى الدين حكم والده مادام طفلاً صغيراً . أفيدع ابنه الصغير لايعلمه الدين وتعليمه القرآن يؤكد له معرفة الدين» وهذا كله واضح الدلالة فى أن الفرض الأول من التعليم هو معرفة القرآن والصلاة ، أى معرفة الدين علماً وعملاً . غير أن القابسى لم يبسط الموضوع على الأساليب الحديثة ، التى تقدم الأغراض ثم تسوق الوسائل لخدمتها ، ولكننا نتلمس الأغراض عنده من خلال ماكتب ، ونقول إن تخصيصه فصلاً عن الإيمان والإسلام ، لم يكن إلا نوعاً من تحديد الفرض للتعليم . ونتلمس أيضاً غرضه مما كتب عن تعليم البنت ، فهو يريد أن يعلمها القرآن والعبادات المختلفة لأنها فرضت على المؤمنين ذكوراً وإناثاً . ولكنه إذ يقول إن سلامتها من تعلم الخط أنجى لها ، يبين لنا أن غرضه من التعليم هو الاقتصار على معرفة الدين ويضحى بتعلم القراءة والكتابة إذا خشى فسادها .

ومن هنا اتصل التعليم بالدين اتصال الوسيلة بالفرض .

ومن النتائج الهامة التى ترتبت على هذه الصلة الضرورية ، أن الديانة الإسلامية تسوى بين العباد ولاتفضل عربيًّا على أعجمى إلا بالتقوى ، ولاتقصر معرفة الدين على فئة دون فئة ؛ وقد حرص المسلمون من أول الأمر على نشر الدين ، والمساواة بين الناس فى مقدار إنسانيتهم . فإلى جانب ماهو موجود فى القرآن من النص على هذه المساواة فإن سيرة النبى والصحابة والخلفاء الراشدين ، تبين بطريقة عملية امتناع التفاوت بين الناس فى الأقدار والمنزلة الاجتماعية ، على العكس من ذلك ساروا سيرة التواضع والبساطة والإقلال ، مما يجعلهم يقتربون من العامة ، لا من الخاصة أو أوساط الناس . كان النبى يخصف نعله ويرفع ثوبه . وقد ثارت فئة من المسلمين على عثمان بن عفان لأنه ابتنى الدور والقصور مما لم يعهد عن رسول الله ، ذلك لأن حرص المسلمين كان على السبق فى المنزلة الدينية . فإذا كان الجميع سواء أمام الله فأفضلهم عند الله أتقاهم . ودار الزمن وأثرى المسلمون وأسلم كثير من

الأعاجم وأقبلت عليهم الدنيا ، وبقى هذا الروح الذى يعبر عنه بالاصطلاح الحديث بالروح الديمقراطى قائماً ، لايجرؤ أحد أن يخالفه . ومما يساعد على انتشار هذا الروح ويمنع من تغيره ويعمل على بقائه وتثبيته ، صلاة الجماعة التى يقف فيها الغنى إلى جانب الفقير ، والأمراء إلى جانب السوقة ، لكل هذا لم يستطع أحد من المسلمين أن يدعى احتكار الدين لنفسه ، يبيعه بعد ذلك لمن يريد طلبه ، أو يكون واسطة بين هؤلاء الطالبين وبين الله ، ومع ذلك فقد درجت فى الإسلام فى عصور متقدمة ومتأخرة كثير من النظريات يبغى أصحابها احتكار العلم والدين ، مثل بعض فرق الشيعة ، وإخوان الصفا ، ومتأخرى المتصوفة الذين اصطنعوا نظرية الأقطاب والأولياء يتوسطون بين المريدين وبين الوصول إلى معرفة الله . ولكن جميع هذه التيارات وأمثالها لاتنفى أن يتعلم الناس جميعاً القرآن والعبادات الشرعية المفروضة كالصلاة والزكاة ، وهى مذاهب يتحول إليها المسلمون بعد مرحلة الشباب لاقبلها ، لأن فهمها يحتاج إلى سعة درك وعمق تفكير . ويبقى بعد ذلك أن الصبيان ينبغى أن يتعلموا القرآن والصلاة ، وأن تعليمهم هذه المبادئ لايتسع معها الخلاف أو الجدل ، وأهم من هذا كله أنَّ الإسلام يتوجه إلى الجميع فلابد أن يتعلم الجميع .

فالديانة الإسلامية فى طبيعتها النظرية من حيث العقيدة ، وفى روحها الذى درج على تفسيره رجال الدين فى عصوره المختلفة ، تدعو إلى نزعة ديمقراطية وتنحو ناحية المساواة .

وقد أثرت هذه النزعة فى التعليم أثراً كبيراً ، إذ أن تأصل فكرة الديمقراطية والمساواة الدينيتين ، انتقلتا إلى التعليم أيضاً .

وقد تنبه المسلمون منذ عصر النبى إلى قيمة التعليم فى معرفة الدين معرفةً صحيحة . وكان التعليم ضروريًّا فى ذلك العهد لحاجة النبى والخلفاء من بعده إلى نشر الإسلام بين سكان جزيرة العرب الذين يدينون بالوثنية ، وبين الفرس الذين يدينون بالمجوسية ، وبين أهل الكتاب ، فلما أسلم أهل تلك البلاد المختلفة خلال قرن أو قرنين من الزمان ، لم تبطل الحاجة إلى التعليم ، لتفقيه الأبناء شئون دينهم المفروض عليهم .

إلزام التعليم :

وكان التعليم فى بدء الأمر تطوعاً فى سبيل الله . ثم انتظم التعليم فى الكتاتيب والمدارس . وتناول المعلمون الأجر . فأصبحت المسألة التى تواجه الفقهاء هى البحث فى تعليم الصبيان أواجب هو أم لا ، وإذا كان واجباً ، فمن هم المكلفون بذلك ؟ وما هو نوع التعليم الذى ينبغى أن يكتسبه الطفل ؟ إلى غير ذلك من المسائل الطارئة فى الإسلام ، والتى لم يحكم فيها فقهاء العهد الأول فى الإسلام ، وهم المتبعون فى الأحكام .

والمعروف أنه بعد استقرار المذاهب الأربعة فى الأمصار . أصبح باب الاجتهاد عسيراً ، بحيث يحتاج الفقيه إلى كثير من الجرأة فى الفكر والاعتداد فى الرأى ليخرج على الناس بحكم جديد .

وقد كان القابسى على الرغم من اتباعه الدقيق لشيوخه الفقهاء جريئاً فى مسألة من المسائل الاجتماعية التى شق بها الطريق لمن جاءوا بعده . تلك هى مسألة إلزام التعليم التى أحسن عرضها ، وساقها فى تطورها مع التاريخ حتى وصل بها إلى العصر الذى يعيش فيه ، إلى أن بسطها الفقهاء الذين خلفوه بسطاً جديداً . ولكنه أحس بها إحساس من يتلمسها التماساً ، ويدور حولها دوران من يشعر بغموض الفكرة .

وإلزام التعليم خطاب للمجتمع بأسره لا لبعض الأفراد فيه .

فالقابسى يريد أن يعلم أبناء الشعب جميعاً ، لأنه يريد أن ينشر الدين ولايحرم أحداً .

ولم يرد فى القرآن نص على وجوب التعليم على الصورة التى نألفها الآن ، ولايوجب الحديث مثل ذلك ، ولم يعهد عن الصحابة والتابعين أنهم أوجبوا على الناس تعليم أبنائهم بإرغامهم على إرسالهم إلى الكتاتيب ، أو استحضار المعلمين لهم والكتاب والسنة والإجماع هى الأصول التى يرجع إليها الفقهاء فى أحكامهم . وليس غريباً أن نجد القرآن خلواً من نص صريح على التعليم ، فلم يكن فى العهد الذى نزل فيه القرآن كتاتيب ، وإرسال الصبيان إليها من الأمور الدنيوية البحتة

التى لاتعرض لأمثالها القرآن ، وإنما يتركها لتصرف العباد .

لذلك احتال القابسى للحكم فى هذه المسألة الجديدة التى لم يسبقه إليها أحد . وبين أيدينا كتاب ابن سحنون مما دوّن عن أبيه فى التعليم ، فلا نجد فيه ذكراً لهذا الموضوع .

وأدلة القابسى قوية أخاذة تنقلك من فكرة إلى أخرى حتى ينتهى بك إلى أن تعليم جميع الصبيان ضرورى واجب ، وأن هذا الوجوب هو الوجوب الشرعى ، على طريقة الفقهاء .

ذلك أن معرفة العبادات واجبة بنص القرآن ، ومعرفة القرآن واجبة أيضاً لضرورتها فى الصلاة ، وأن الوالد مكلف تعليم ابنه القرآن والصلاة لأن حكم الولد فى الدين حكم أبيه فإذا لم يتيسر للوالد أن يعلّم أبناءه بنفسه فعليه أن يرسلهم إلى الكتّاب لتلقى العلم بالأجر . فإذا لم يكن الوالد قادراً على نفقة التعليم فأقرباؤه مكلفون بذلك . فإذا عجز أهله عن نفقة التعليم فالمحسنون مرغبون فى ذلك . أو معلم الكتاب يعلم الفقير احتساباً أو من بيت المال .

النتيجة التى يريد أن يصل إليها القابسى هى تعليم جميع أبناء المسلمين أغنياء وفقراء . وهذا هو التعليم الإلزامى بعينه أعلنه القابسى فى القرن العاشر الميلادى أى فى صميم القرون الوسطى التى كان أهل أوربا يعيشون فيها مع الجهل والظلام .

وقد تركزت هذه النظرية فيما بعد واستقرت عند فقهاء المذاهب فجعلوا طلب العلم فرضاً . فى مقدمات ابن رشد[٨] . وطلب العلم والفقه فى الدين من فروض الكفاية كالجهاد أوجبه الله تعالى على الجملة . سئل مالك عن طلب العلم أواجب هو أم لا ؟ فقال : « أما على كل الناس فلا » وروى عن ابن وهب وكان جالساً معه (مع مالك) فحضرت الصلاة ، فقام إليها ، فقال له : « ماالذى قمت إليه بأوجب عليك من الذى قمت عنه » . قال ابن رشد : وهذا كلام فيه نظر ، كيف يكون طلب العلم على أحد أوجب عليه من صلاة الفريضة ؟ فالمعنى عندى إنْ صحت الرواية أنه أراد ما الذى قمت إليه بأوجب عليك فى هذا الوقت من الذى قمت

(٨) مقدمات ابن رشد ص ١٤ – ١٥ .

عنه ، لأن الصلاة لا تجب بأول الوقت إلا وجوباً موسعاً . إلى أن قال : «وكما يجب على المتعلم التعلم ، فكذلك يجب على العالم التعليم . «إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » .

أما الغزالى[٩] فقد قسم العلم إلى قسمين : فرض عين وفرض كفاية ، وهو فى ذلك يرجع إلى حديث الرسول : «طلب العلم فريضة على كل مسلم» قال : واختلف الناس فى العلم الذى هو فرض على كل مسلم فتفرقوا فيه أكثر من عشرين فرقة ، كل فريق نزل الوجوب على العلم الذى هو بصدده فقال المتكلمون : هو علم الكلام إذ به يدرك التوحيد ؛ وقال الفقهاء : هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام ؛ وقال المفسرون والمحدّثون : هو علم الكتاب والسنة ؛ وقال المتصوفة : المراد به هذا العلم . أما رأى الغزالى فإنه علم المعاملة التى كلف العبد العاقل البالغ العمل بها . أما العلم الآخر فهو علم المكاشفة على مذهبه فى التصوف . أما العلوم التى هى فرض كفاية فهى تلك التى يلزم معرفتها لكمال الدين كالنحو والعربية والتفسير والقرءات والحساب .

بذلك تطورت فكرة إلزام التعليم ، أو وجوب العلم ، وأصبحت مما يقره فقهاء المسلمين ، ويتداولونه فى كتبهم . وفى ذلك يقول صاحب مفتاح السعادة : «اعلم أن حفظ القرآن فرض كفاية على الأمة لئلا ينقطع عدد التواتر فيه ، فلا يتطرق إليه التبديل والتحريف . وتعليمه أيضاً فرض كفاية ، وهو من أفضل القرب . فى الصحيح : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» . وتعلم القرآن عند الغزالى فرض كفاية أيضاً ، وطاش كبرى زاده يأخذ هذا الرأى ويذهب هذا المذهب[١٠]

وتختلف فكرة الإلزام التى نبسطها عند القابسى عنها فى الدول الحديثة : ووجه الخلاف راجع إلى تطور النظم الاجتماعية ، وتطور الفكرة عن الدولة ووظيفتها .

---

(٩) الغزالى فى الإحياء ص ١٣ – ١٦ .

(١٠) مفتاح السعادة ومصباح السيادة – طاش كبرى زادة المتوفى سنة ٩٦٢هـ مطبعة حيدر أباد بالهند ج – ٢ ص ٢٥٩ .

والرأى الحديث أن الدولة مكلفة تعليم جميع أبناء الشعب حتى سن معينة دون أجر ، فالتعليم واجب على الدولة تنفق عليه من خزانتها . ومن ناحية أخرى على الشعب واجب العلم ، وهو واجب قانونى يعاقب صاحبه بالغرامة إذا لم يؤده . ولم تفصل الحقوق والواجبات فى العصور القديمة هذا التفصيل . وإنما كانت الحقوق والواجبات كلها دينية ، والعقاب عليها مستمدًّا من الدين ، ويقوم الحاكم أو الوالى بتنفيذ هذه العقوبات أشار القابسى إلى شىء من ذلك إذ سأله سائل عن حالة الوالد الذى يمتنع عن إرسال ابنه إلى الكتّاب يتلقى الدين والعلم هل « للإمام أن يجبره » ؟ فأجاب القابسى أن ليس للإمام أن يجبره ، وإنما يوعظ ويؤثم . وإذن فقد عرضت المسألة على بساط البحث ، وأوشكت أن تتم أركان الإلزام من ناحية الدولة ، لولا تردد الفقهاء فى الحكم ، لأن عقاب الوالد فى حالة الامتناع عن إرسال ابنه إلى الكتاب يحتاج إلى دليل شرعى من الكتاب أو السنة أو الإجماع ، وليس فيها مثل هذا النص .

على أن المسألة اتجهت وجهة أخرى هى تطوع الأغنياء والأمراء بالإنفاق على الكتاتيب وإجراء الأموال عليها لتستمر على الحياة ، وإذا تيسر افتتاح الكتاتيب ، وإقامة المسلمين فيها بالأجر ، فليس ما يمنع الناس من إرسال أبنائهم إليها . ويحل عمل الأمراء محل الدولة . هؤلاء هم المحسنون الذين أشار إليهم القابسى . وقد كانت هذه العادة متبعة فعلاً بتأثير حث الفقهاء الناس على طلب العلم والتعليم ، والإشادة بفضل العلم .

وفى كتب التاريخ والتراجم إشارات كثيرة إلى المساعدات العظيمة التى قام بها الأمراء لافتتاح الكتاتيب .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تطورت الفكرة إلى شىء أسمى من ذلك وأكثر استقراراً وأشد ضماناً لحياة الكتاتيب ، وفى حياتها حياة لتعليم الصبيان ، تلك هى رصد الأوقاف على الكتاتيب والمدارس ، وبذلك تتم حلقات هذه السلسلة الطويلة فى تاريخ التعليم ، والجهاد فى سبيل نشره وإلزامه ، إذ تبدأ بالتطوع ، ثم تستقر شيئاً فشيئاً مع الزمان حتى تنتهى إلى الوقوف عند الأوقاف المرصودة على التعليم .

تعليم الإناث :

وتتم هذه الحلقة فى إلزام التعليم بإشراك البنت إلى جانب الولد فى هذه الفضيلة . وقد أقر القابسى هذا المبدأ لها ، واعترف بحقها فى التعليم . وهو يقرر ذلك فى سبيل الدين ، لأن المؤمنين والمؤمنات مكلفون جميعاً بنص القرآن ، ولاتتيسر معرفة الدين إلا بنوع من التعليم .

ولم يكن تعليم المرأة فى الإسلام بدعة ، فالمعروف أن كثيراً من النساء نبغن فى العلم والأدب والشعر ، وجاء ذكرهن ونوادرهن فى كتب الأدب والتاريخ ، ولكن المسألة هى إلزام تعليمهن لا على سبيل الزينة بل على الوجوب الدينى . فإذا أفتى الفقهاء بوجوب تعليمهن بأسانيد دينية ، فليس ما يمنع من تعليمهن كما يتعلم الصبيان ، وليس مايمنع من ذهابهن إلى الكتاتيب فى الصغر . فانتشار التعليم فى البنات روح جديد لم يكن معهوداً فى الزمن الأول للإسلام . أما الذى كان معروفاً فى بدء الإسلام ، وقبل الإسلام ، فهو أن عدداً قليلا يعد على أصابع اليد الواحدة من النساء كن يعرفن القراءة والكتابة ؛ الأمر فى ذلك يشبه عدد الرجال الذين كانوا يقرءون ويكتبون عندما أقبل الإسلام .

عن البلاذرى : «قال النبى للشفاء بنت عبد الله العدوية من رهط عمر بن الخطاب ، ألا تعلمين حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة » . وكانت الشفاء كاتبة فى الجاهلية .

ثم عدّد البلاذرى بعض النساء الكاتبات منهن «حفصة زوج النبى ، وأم كلثوم بنت عقبة ، وعائشة بنت سعد التى قالت : علمنى أبى الكتاب »[١١] .

هذا ما كان من شأن المتعلمات فى فجر الإسلام ، وقد استمرت هذه السّنة متبعة جيلاً بعد جيل ، فكان الأمراء يعلمون بناتهن فى داخل القصر ويجلبون لهن المعلمين والمؤدبين .

---

(١١) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٥٨ .

ونستدل مما كتبه القابسى أن البنات كن يتعلمن فى الكتاتيب حيث قال : «ومن صلاحهم ومن حسن النظر لهم ألا يخلط بين الذكران والإناث ، وقد قال سحنون أكره للمعلم أن يعلم الجوارى ويخلطهن مع الغلمان . لأن ذلك فساد لهن» ١ - ٧٥ .

واختلاط الجنسين فى التعليم من المسائل الشائكة التى واجهها العالم من قديم الزمان ، ولايزال يواجهها حتى الآن فى العصر الحاضر . والأقوال فى هذه المسألة متضاربة ، هل نجمعهما فى التعليم أم نفصل بينهما ، وأى الأوقات أنسب لفصلها ؟

والخشية من فساد البنات لاختلاطهن بالذكور ، جعلت الكثيرين يعلمنهن على حدة قال القاضى عياض فى كتاب ترتيب المدارك : «ومن سيرة عيسى ابن مسكين فى غير مدة قضائه أنه كان إذا أصبح قرأ حزباً من القرآن ثم جلس للطلبة إلى العصر . فإذا كان بعد العصر دعا بنيه وبنات أخيه يعلمهن القرآن والعلم»[١٢] . ويبقى أن الفقهاء ، ومنهم القابسى قرروا تعليم البنات للضرورة الدينية . وكان البنات يتعلمن فعلاً إما فى قصور الأغنياء وهم القادرون على استحضار المؤدبين ، وإما فى الكتاتيب لعامة الشعب ، وبذلك ساد مبدأ إلزام التعليم .

ونقول إن الانصراف فى العصور المتأخرة عن تعليم البنت يرجع إلى ماسبق أن ذكرناه من الخوف من فساد البنت إذا تعلمت إلى جانب الولد ، مما أدى فى نهاية الأمر إلى الامتناع عن تعليم البنات فى الكتاتيب . والسبب الثانى هو النصح بعدم تعليم البنت الكتابة والخط خشية فسادها أيضاً . وفى ذلك يقول القابسى : وسلامتها من تعلم الخط أنجى لها» ، والقابسى يعبر عن روح العصر الذى بدأ قبل ذلك ، واستمر إلى أن قضى على المرأة بالانزواء داخل جدران البيت . وقبل زمن القابسى نجد هذا الرأى منتشراً . قال الجاحظ : «لاتعلموا بناتكم الكتابة ، ولا تروهن الشعر ، وعلموهن القرآن ؛ ومن القرآن سورة النور»[١٣] .

مما سبق يتضح لنا أن معرفة الدين هى الغاية القصوى والمطلوب الأول ،

---

(١٢) نقلا عن كتاب آداب المعلمين لحسن حسنى عبد الوهاب ص ٢٢ .

(١٣) البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ٢ .

وتحقيقاً لهذه الغاية وجب التعليم ومعرفة القراءة والكتابة ، لا فى دائرة ضيقة ، بل فى أوسع دائرة بحيث تشمل جميع أفراد الأمة ذكوراً وإناثاً .

مناقشة الغرض من التعليم :

ولم يذكر القابسى من الأغراض التى يبتغيها الإنسان حين يتعلم إلا الغرض الدينى .

وقد ذكر خليل طوطح(١٤) أن التعليم عند المسلمين كان يرمى إلى أربعة أغراض : غرض دينى ، وغرض اجتماعى ، والتلذذ العقلى ، وغرض مادى .

وقسمت السيدة أسماء فهى أغراض التعليم إلى ثلاثة أقسام : غرض دينى ، وغرض عقلى وثقافى ، وغرض نفسى(١٥)

وكلاهما يأخذ هذه الأغراض من شتى المؤلفات العربية مثل تعليم المتعلم للزرنوجى ، وجامع بيان العلم لابن عبد البر ، وإحياء العلوم للغزالى ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ، ومفتاح السعادة لطاش كبرى زاده ، ورسائل إخوان الصفا .

والرأى عندنا أنه لايوجد أغراض للتربية عند العرب تعمهم على وجه الإطلاق ، وإنما الصواب أن نذكر صاحب المذهب ثم نذكر الغرض من التعليم الذى يلائم هذا المذهب . فطريقة التعليم مستمدة من مذهب صاحبها .

والغرض من التعليم عند القابسى ، وهو من فقهاء أهل السنة ، غرض دينى يقصد منه إلى تعلم القرآن ومعرفة العبادات المفروضة .

وقد أوجزنا القول فى فصل آخر عن التربية عند العرب ، وعرضنا هذه المذاهب المختلفة ، لنبين أن الاختلاف فى أغراض التعليم ووسائله عند المسلمين إنما يرجع إلى اختلاف هذه المذاهب العقلية .

---

(١٤) التربية عند العرب – خليل طوطح ص ١٥٢ – ١٥٣ – ١٥٤ .

(١٥) كنت قد رجعت إلى رسالة السيدة أسماء فهى باللغة الإنجليزية وهى التى حصلت بها على درجة الماجستير وللسيدة أسماء كتاب بالعربية ظهر ١٩٤٧ ، بعنوان مبادئ التربية الإسلامية » .

على أن القول بأن من أغراض التعليم عند العرب كسب المنزلة الاجتماعية قول جرىء يحتاج إلى دليل .

وقد اعتمد خليل طوطح على ما ذكره ابن عبد البر فى كتابه جامع بيان العلم « اطلبوا العلم ، فإن كنتم ملوكاً برزتم ، وإن كنتم سوقة عشتم » ، وهذا نص عن ابن المقفع ، وهو القائل بعد ذلك : إذا أكرمك الناس بمال أو سلطان فلا يعجبك ذلك ، فإن زوال الكرامة بزوالها ، ولكن ليعجبك إذا أكرموك لعلم أو دين[١٦] .

وقد عقد ابن عبد البر فصلاً فى مكان آخر قال فيه : وقد تبين بما ذكرنا أن حب المال والرياسة والحرص عليهما يفسد دين المرء .. إلى أن قال .. واعلم أن النفس تحب الرفعة والعلو على أبناء جنسها ، ومن هذا نشأ الكبر والحسد ولكن العاقل ينافس فى العلو الدائم الباقى الذى فيه رضوان الله وقربه وجواره »[١٧]

والدين والدنيا يجتمعان ويفترقان ، فمن طلب الدنيا ذهبت منه الآخرة ، ومن عمل للآخرة أقبلت عليه الدنيا أيضاً . وفى ذلك يقول ابن عبد البر : « وبكل حال فطلب شرف الآخرة يحصل معه شرف فى الدنيا وإن لم يرده صاحبه ولم يطلبه وطلب شرفا الدنيا لايجامع شرف الآخرة ولايجتمع معه . والسعيد من آثر الباقى على الفانى »[١٨]

ولا نريد أن نستقصى جميع كتّاب المسلمين لنصحح ما أخذه عنهم الباحثون فى التربية والرأى عندنا أنهم جميعاً جعلوا الغاية من التعليم غاية دينية ، وأكدوا هذه الغاية تأكيداً لايقبل الشك ، وإذا كان بعضهم وجد أن التعليم يحقق أغراضاً اجتماعية أو عقلية أو مادية ، فإن هذه الغايات الأخيرة تأتى فى المرتبة بعد الغاية الدينية ، وليست مقصودة لذاتها ، ولم يفتهم النص على إيثار الدين على الدنيا فى جميع الأحوال .

هذا إلى أن البحث فى التعليم عموماً يختلف عن البحث فى تعليم الصبيان ،

---

(١٦) جامع بيان العلم ص ٦٨ – الجزء الأول .

(١٧) جامع بيان العلم ص ١٨٠ .

(١٨) ص ١٨٣ .

والغرض من تعليم الصبيان هو معرفة الدين قبل كل شيء . ولذلك أوجبوا تعليمهم .

وإذا نظرنا إلى المواد التي كان يتعلمها الصبيان في الكتاتيب تبين لنا أن الغاية التي حددت هذه العلوم هي الغاية الدينية ، وأول هذه العلوم هو القرآن الذي يحفظه الصبي قراءة وكتابة ، فالكتابة ليست مقصودة لذاتها من حيث فائدتها الاجتماعية أو العقلية أو المادية ، بل لسهولة حفظ القرآن وتقييده ، للرجوع إلى المكتوب المقيد في أي وقت يشاء الصبي ، والنحو والعربية الغرض منهما قراءة القرآن على الوجه الصحيح وحسن فهمه . وقد نص القابسي على أن تعليم الحساب ليس بلازم إلا إذا اشترط عليه . وقد بحث الفقهاء بعد هذا العصر في تعليم الحساب . والتمسوا له علة دينية هي الفائدة في معرفة المواريث وقسمتها كما هو وارد في الشرع ، فإذا كانت هناك ضرورة لتعلم الحساب فهي إذن ضرورة شرعية لا اجتماعية أو مادية .

لقد بدأ القابسي كتابه بفصل عن الإيمان والإسلام ، واختتمه بفصل في القراءات والكلام عن أفضل المقرئين ، وبهذا يبدأ الصبي مؤمناً مسلماً وينتهي قارئاً للقرآن .